مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث العلمية – سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (18) العدد (11) 1996
Tishreen University Journal for Studies and Scientific Research – Arts and Humanities Series Vol. (18) No (11) 1996

قصيدة أحمد فارس الشدياق
لَمُّ القرود في ذَمِّ اليهود

الـــدكتور خالـــد ســـليمان*

☐ الملخّص ☐

تلتقي هذه الورقة الضوء على قصيدة للشدياق مازالت مجهولة لدى الكثيرين من الدارسين. والقصيدة مازالت مخطوطة في مكتبة جامعة كمبردج. وقد قمنا بتصوير مخطوطة القصيدة، وزوّدنـا مكتبـة جامعـة اليرموك بنسخة منها. ولم يرد ذكر القصيدة –حسب علمنا– إلا في مقالتين كتبتا باللغة الإنكليزية. وقد أخطـأ الدارسان في المقالتين في تأريخ القصيدة، كما أخطأ، كما نعتقد، في تعليل لجوء الشدياق إلى هجـاء اليهـود، وردّا ذلك إلى أسباب شوفينية.

ولما كان نشر القصيدة ليس أمراً مستطاعاً، نظراً للفحش الشديد في ألفاظها وصورها، فقد اكتفينا في هذه الورقة بتناول أبرز الموضوعات التي تضمنتها، مما يتعلق بديانة اليهود وسلوكهم عبر التـاريخ. ومما لاحظناه أن الشدياق في هذا المجال يلتقي مع وجهة نظر علماء المسلمين التقليدين، كما جاء في رسـالة ابـن حزم التي ردّ فيها على ابن التغريلة اليهودي، والتي تضمنتها مجموعة رسائله التي قـام بتحقيقهـا الـدكتور إحسان عباس.

* جامعة اليرموك – إربد – الأردن.

مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث العلمية - سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (18) العدد (11) 1996
Tishreen University Journal for Studies and Scientific Research – Arts and Humanities Series Vol. (18) No (11) 1996

Al-shidyaq's poem
Apes Survey of Dispraising the Jews

Dr. Khaled SOULIMAN*

❐ ABSTRACT ❐

This paper sheds light on a prolonged (268 lines), unpublished poem written by Ahmad Faris al-Shidyaq, in which the Jews were made the object of severe satire.

The poem is not well known to readers and scholars, especially Arabs. In fact only two scholars had shown knowledge of this poem, mentioning it in two articles written in English. However, both were mistaken in their dating of the poem, and in outlining the motives which carried al-Shidyaq to starize the Jews.

Since the working of the poem is so monstrous and vulgar, which makes publishing it improper, the paper discusses the main themes in the poem. The discussion shows that al-Shidyaq satire of the Jews was based on a conventional Moslim doctrine similar to that of Ibn Hazm as expressed in his well known letters.

* Yarmouk University, Irbid, Jordan.

أولاً: تاريخ القصيدة:

على الرغم من أن أحمد فارس الشدياق (1801؟-1987) لم يشتهر شاعراً شهرته صحفياً أو أديباً لغوياً، إلا أن إحدى قصائده كانت سبباً رئيساً في تغيير مجرى حياته؛ نعني بها القصيدة التي نظمها في مدح أحمد باشا، والي تونس، ومطلعها:

زارت سعاد وثوب الليل مسدول فما الرقيب بغير النشر مدلول[1]

معاضاً بها لأميّة كعب بن زهير (توفي سنة 24هـ) في مدح الرسول، صلى الله عليه وسلم، التي مطلعها:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيم إثرها لم يفد مكبول[2]

وأنه لمن سوء الحظ أن يضيع معظم شعر الشدياق، ذلك أن ديوانه بلغ نحواً من عشرين ألف بيت - كما ذكرت بعض الروايات[3]- قد ذهب طعمة للنيران أثر حريق شب في بيته في اسطنبول قبل سنوات من وفاته[4]، ولم يبق من شعره إلا ما كان منفرقاً في ثنايا مؤلفاته، أو ملحقاً بها، أو مبثوثاً في بعض أعداد جريدة "الجوائب" أو في كتبه إلى أهله وأصدقائه.

وعلى الرغم من رفرة الدراسات التي تناولت الشدياق، حياته وآثاره[5]، إلا أن جزءاً من أعماله الشعرية وغير الشعرية، مازال مخطوطاً[6]، كما أن بعضها مازال مجهولاً لدى جمهرة كبيرة من القراء والدارسين. ومن بين هذه الأعمال الشعرية التي مازالت مجهولة لدى الكثيرين قصيدة طويلة بعنوان "لَمُّ القرود في ذَمِّ اليهود"، بلغ مجموع أبياتها /267/ بيتاً، نظمت على وزن "الوافر". وقد استخدم في قافيتها جميع الألفاظ المنتهية بالنون، مما يتوافق منها مع القافية. يقول في مقدمتها:

"التزم فيها ناظمها ايراد جميع ما في باب النون من الألفاظ الموافقة للقافية، وبذلك يُغْتَفَر ما يُرى فيها من اقتضاب المعنى مرة، ومن خلو الأبيات عما يكون لفقالها مرة أخرى، وربما تكررت القافية في غير موضع لفظاً أو معنى"[7].

والقصيدة هذه مثبتة مع قصيدة أخرى للشاعر في مدح الملكة فيكتوريا، ملكة بريطانيا (1837-1901م) في نسخة خطية، بخط الشاعر نفسه، لكتابة المعروف "الجاسوس على القاموس" وهذه المخطوطة محفوظة بمكتبة جامعة "كيمبردج" تحت رقم Ms. Or. 1446[8]. ومن المرجح أن تكون هذه النسخة المخطوطة قد كتبت من قبل الشدياق حوالي عام 1850م[9].

ولم نجد من بين الدارسين من أشار إلى قصيدة "لم القرود..." سوى اثنين، أولهما المستشرق البريطاني A.J. Arberry وقد جاءت إشارته لها مقتضبة في سياق مقالةله عن الشدياق، كان قد كتبها عام 1952م[10]. أما الثاني فدارس عربي هو الدكتور محمد بكر علوان، في مقالة بالإنكليزية أيضاً، نشرها في مجلة "العربية" التي تصدرها بالإنكليزية جمعية أساتذة اللغة في الجامعات الأمريكية[11]. وعلى الرغم من أن الدكتور علوان قد تحدث عنها بشكل مقتضب أيضاً، إلا أنه حاول أن يلقي الأضواء على الأسباب التي ربما دفعت الشدياق إلى كتابة هذه القصيدة، فردها إلى مشاعر "شوفينية" معادية لليهودية تستلهم بين العرب. وفي رأينا أن هذا التفسير متسرع لم يجهد نفسه لم تتشر، مما يتصل بالتوراة والانجيل، كما سنحاول أن نوضح فيما يلي:

إن التاريخ الذي أرخت به القصيدة، كما يظهر في المخطوطة، هو سنة 1248هـ، وهو ما يقابل في التقويم الميلادي 1833/1832. وإذا ما اعتبرنا أن هذا التاريخ هو تاريخ نظم القصيدة، وهو ما نشك في صحته، فان هذا يعني أن الشدياق نظمها وهو في سن السابعة والعشرين، إذا أخذنا في الاعتبار أنه ولد عام 1805م، كما تذكر بعض المراجع(12)، أو في الثانية وثلاثين، على اعتبار أنه ولد عام 1801م. كما تذكر مراجع أخرى(13). ومعنى ذلك أن الشدياق يكون قد نظمها وهو في مصر، بعد أن عاد إليها من مالطة على أثر إصابته بمرض المفاصل هناك، كما ذكر عماد الصلح، وهو بصدد تتبعه لحياة الشدياق في دراسته القيمة عنه[14].

وقد دفعنا تتبع سيرة حياة الشدياق من خلال ما كتب عنه، وتتبع مسار نضجه الفكري، كما وصلنا في آثاره المطبوعة إلى التساؤل، ثم الشك، فيما إذا كان هذا التاريخ المثبت في نهاية القصيدة يشير إلى تاريخ نظمها، أو أنه يشير إلى تاريخ بيتين ألحقهما الشاعر بالقصيدة. ففي الصفحة الأخيرة في مخطوطة القصيدة، وبعد البيت السابع والستين بعد المائتين، أفاد الشاعر كتابه "أن القصيدة تمت". ثم عاد فألحق بها بيتين مختلفين الروي، وبعد البيتين وضع التاريخ الذي ذكرناه، أي 1248هـ[15].

وقد قوي هذا الشك لدينا في أن التاريخ الذي وضع بعد البيتين المضافين إلى القصيدة ليس تاريخ نظم القصيدة وإنما هو تاريخ نظم البيتين، من خلال مجموعة من العوامل التي تجعلنا نرجّح أن الشدياق لم يكتب قصيدته هذه عام 1850م، وأن ما ذكره الدارسان، آربري وعلوان فيما يتعلق بتاريخ القصيدة يرجع إلى اختلاط الأمر عليهما بأن ظنا أن التاريخ المثبت في القصيدة هو تاريخ نظم القصيدة نفسها. ونستطيع أن نجمل العوامل التي تعزز رأينا بما يلي:

1- لم نجد من بين المراجع الكثيرة التي تناولت الشدياق بالبحث والدراسة ما يوحي بأن الشاعر قد نظم قصيدة طويلة خلال الفترة السابقة على ذهابه إلى انكلترا في نهاية الأربعينيات، أو أية قصيدة يظهر فيها مثل هذا النضج الفكري والثراء اللغوي اللذين يظهران في القصيدة. وحتى في كتاباته النثرية فان مثل هذا النضج لم يظهرا إلا منذ أواخر الأربعينات، وبالذات خلال المادة التي أتم فيها كتابة مؤلفه القيم "الساق على الساق فيما هو الفارياق". وهي المدة التي كتب فيها أيضاً عدداً من الآثار المتعلقة بالديانات المسيحية واليهودية التي لم تنشر، مثل: "المرآة في عكس التوراة" و"مماحكات التأويل في مناقضات الانجيل" و"المسائل المفخمة في العقائد المبهمة"[16]. ويتحدث عماد الصلح عن هذه الفترة من حياة الشدياق، فيقول:

في هذه الفترة من مراحل تفكير الشدياق الديني يبدو واضحاً أنه يرفض مالا يراه يتلاءم مع العل، ولكنه وقف عند حد لم يتجاوزه، ايمانه بالله، وهو الحد الفاصل بين الدين في جوهره، والأخلاقيات فيه، وبين ما يضاف إليه عادة من قصص ومعجزات، وما يلحق به من طقوس ومؤسسات[17].

وهذه الفترة من حياة الشدياق تتزامن مع انتهائه من مشاركة الدكتور "صموئيل لي" في ترجمة التوراة إلى الإنجليزية، على أثر تكليفه بذلك من قبل وزارة الخارجية البريطانية، وسفره إلى بريطانيا لهذه الغاية عام 1848م. وقد أمده هذا العمل في ترجمة التوراة "بثقافة جديدة" كما لاحظ مارون عبود[18].

2- ان النسخة الأولى التي كتبها الشدياق بخطه لكتابه "الجاسوس على القاموس" كما يذهب A.J. Arberry قد كتب عام 1850م. وكما ذكرنا فقد ألحق الشدياق بهذه النسخة الخطية قصيدته "لم القرود..." والأخرى التي في مدح الملكة فيكتوريا، والتي أرضها بـــ1850م.

3- يذكر عماد الصلح وجود مخطوطة للشدياق محفوظة في مكتبة الأوقاف ببغداد، بعنوان "مماحكات التأويل في منقضات الانجيل"، ويعلق على هذه المخطوطة فيقول: "وبالاجمال فان في هذا الكتاب من الجرأة... ما

يدعو إلى التساؤل عما طرأ من المؤشرات الجديدة على الشدياق"[19]. ومثل هذه المؤشرات تجعلنا نعزو إليها نظم هذه القصيدة أيضاً. وليس السبب، كما ذهب الدكتور علوان، مشاعر شوفينية في نفس الشاعر.

4- يذكر عماد الصلح أيضاً في قائمة آثار الشدياق، المخطوطة التي أشرنا إليها قبل قليل، مخطوطة بعنوان "المرآة في عكس التوراة"، وينقل الصلح عن بولس مسعد ان هذه المخطوطة سفر ضخم يقع في نحو 700 صفحة، أفرغة في قالب بديع لم ينسج على منواله، وشرع في إنشائه على أثر ترجمة ولكنه احترق مع ما احترق في بيته"(20).

كل هذا يوضح أن ما كتبه الشدياق فيما يتعلق بأمور تخص المسيحية واليهودية قد جاء في فترة لاحقة لتحريته في ترجمة التوراة مع الدكتور صموئيل لي. وقصيدة "لم القرود..." جزء متزامن مع هذه الأعمال، كما نرجح، وليست مرحلة أو عملاً سابقاً لها.

ثانياً: موضوع القصيدة:

ان أبرز ما تمتازه هذه القصيدة أن الفاظها من الألفاظ الجنسية التي تخدش الحياء. وهذا -إلى جانب حساسية موضوعها- مما يقف حائلاً أمام نشرها كاملة. لقد عرف ديوان الشعر العربي في عصوره المختلفة شعراء ماجنين هجّائين ضمنوا أهاجيهم الكثير من الألفاظ الموغلة في الفحش. لكن الشدياق في هذه القصيدة قد تفوق، وليس ذلك من قبيل المبالغة، على عرفه ديوان الشعر العربي. والقصيدة على كل حال مثال جيد على قدرة الشدياق الهائبة على توظيف مثل تلك الألفاظ في أسلوب ساخر مقذع، جعلت مارون عبود يقول عن شعر الهجاء عنده: "ويشتدّ (شعره) في الهجو.. فيتساقط كأنه حجارة المنجنيق"[21]. كما قال عنه أيضاً: "وشاعرنا ماجن مهذب في شعره، :إلا إذا هجا"[22].

وفي الواقع، فإن فحش ألفاظ القصيدة بهذا الشكل الذي جاءت عليه في معظم أبيات القصيدة جعلنا نقف طويلاً أمام كيفية تقديم القصيدة، ولا نحن بقادرين على مقاومة إغراء كشفها والتعريف بها. ثم أن من حق الشدياق أن يعرّف بها وبغيرها من قصائده التي مازالت مجهولة، عندما يكتب عن صاحبها، لا سيما أن ديوانه الشعري، أو ما تبقى من ديوانه الشعري، لم يجمع بعد. وربما يكون ما استقر عليه رأينا من التعريف بالقصيدة في إطارها العام مخرجاً مقبولاً من هذا المأزق.

يتناول الشدياق في القصيدة أكثر من جانب يتعلق بالتوراة في صورتها التي بين أيدي اليهود. وقد كشفت له معرفته الوثيقة بها الجوانب التي رأى فيها مجالاً لا يتفق وعقله الواعي بجوهر الدين. وهو في هذه الجوانب يعيد إلى أذهاننا ما كان ابن حزم الأندلسي (384هـ-456هـ) قد استغله في إحدى رسائله في الرد على ابن النغريلة اليهودي[24].

وإذا كان ابن حزم قد ركز في تلك الرسالة على ثلاثة جوانب في التوراة، هي: فكرة التجسيم وتشويه صورة الأنبياء، وبعض التعاليم فيها، فإن الشدياق أيضاً قد ركز على هذه الجوانب وصوب إليها نقده اللاذع، مضيفاً إليها نقداً مرّاً لكهّان اليهود وحلمهم في العودة إلى فلسطين، لبناء مملكة يهودية فيها.

التجسيم:

من المعروف أن التوراة في صورتها المتداولة بين أيدي اليهود، تجسم الذات الإلهية، أي تصبغ عليها من الصفات والأفعال، ما هو بالطبيعة البشرية، سواء ما كان يتعلق بالصفات والأفعال الخُلقية، أو الصفات والأفعال الخَلْقية. يقول ابن خزم في رسالته التي أشرنا إليها: "إذ يفترون أن الله تعالى خلق إنساناً

مثله"[25]، ولم يكن انفرد عنه تعالى إلا بشيئين: علم الشر وعلم الخير، ودوام الخلود والحياة. وأن آدم، صلوات الله عليه، أكل من الشجرة التي فيها علم الخير والشر. فلما خالفه عظم ذلك عليه، قال: هذا آدم أكل من الشجرة التي فيها علم الخير والشر فساوانا في ذلك، فإن أكل من شجرة الحياة حصل على الخلد، فكان مثلنا لا فضل لنا عليه[26].

وفي موضع آخر من رسالته يشير ابن حزم إلى ما جاء في التوراة من مصارعة يعقوب عليه السلام، ربه، جل وعز، ويقول: ولو أن هذا الجاهل الأنوك (يعني ابن النغريلة) تدبر ما في باطلهم المبتدع، وهجرهم الموضوع الذي يسمونه "توراة" إذ يقول: إن موسى عليه السلام راجع ربه إذ أراد إرساله، وقال: من أنا حتى أمضي إلى فرعون، أرسل من تريد ترسل. وأغضب ربه تعالى بذلك. وأن يعقوب، عليه السلام، صارع ربه ليلة بتمامها، وهو لا يعرف من هو، فلما انسلخ الصباح عرف أنه الله -تعالى الله عن هذا الحمق من الكفر علواً كبيراً- قالوا فلما عرفه أمسكه، فقال له ربه: أطلقني، فقال له يعقوب لا أطلقك حتى تبارك علي، فقال له ربه، كيف لا أبارك عليك وأنت كنت قوياً على الله، فكيف على الناس"[27].

وقد ركز الشدياق على فكرة التجسيم هذه، مفتتحاً بها القصيدة، ومخصصاً لها الأبيات من 1-11. وهو يقرر بادئ ذي بدء أن إضفاء أفعال البشر وصفاتهم على الذات الإلهية خروج إلى دائرة الكفر. تقول الأبيات المشار إليها:

لقد كفر اليهود بما افتروه	*على الرحمن من وصف مهين*
فقالوا انه يغدو صباحاً	*ويركب ظهر ثور ذي قرون*
وأن له جناحاً ذا رياش	*وشعراً شاب أبيض كالرقين*
وان يسمع دعاء من مسيح	*لهم يحدث له طرب الخدين[28]*
وان يغضب يثر من منخريه	*دخان كالدخان من القمين[29]*
وأن له حشا وفقا وساقا	*وأن له لقلبا ذا شجون*
يفكر في الشرور على البرايا	*ويندم بعد ذلك كالحزين[30]*
ويأمر بالفجور وبالمعاصي	*وقتل سوى اليهود من العطين[31]*
وهتك حريمهم من غير حرب	*ونهب متاعهم عند الهدون*
وقد نسبوا إليه الأكل والشرب	*واستنشاق رايحة السدين[32]*
وقالوا أنه يشجا ويلهو	*ويطرب ثم يشدو للرنين*

وكما هو واضح، فإن الشاعر في الأبيات التي أوردناها يرتكز على نصوص بعينها في التوراة، وقد أشرنا لهذه النصوص في الحواشي. وبإمكان الدارس الرجوع إليها في مصدرها.

وبعد أن يسترسل الشاعر في ذكر كثير من الطقوس والتعاليم في التوراة، مستهجناً مستنكراً ومهاجماً. يصل إلى نتيجة عقلانية تتعلق بفكرة التجسيم التي أثارها في الأبيات الأولى في القصيدة، فيرى وجوب إنكارها من كل ذي لب، فيقول في الأبيات: 33-36:

33 إذا الخلاق أثر فيه شيء ... من المخلوق من ماء وطين

34 فإن الفاعلية لم تكن غير ... ر مفعولية في فرد حين

35 وكان الله عز وجل بعض الـ ... ـحوادث ذا اتصاف بالشئون

36 تعالى عن ضلالهم جميعاً ... وعز عن المماثل والقرين

صورة الأنبياء:

ويقول ابن حزم عن تشويه اليهود لصورة الأنبياء: "ثم نجدهم لا يستحيون من أن ينسبوا إلى الأنبياء عليهم السلام أنهم زنوا، وأنهم من نسل الزنا"[33].ويشير من ثم إلى كثير من المواضع التي ورد فيها ذلك. كما يناقش أيضاً ما تنسبه التوراة إلى الأنبياء –عليهم السلام– من ارتكاب المعاصي الأخرى والأفعال القبيحة[34].

ويشير الشدياق إلى كثير من هذه الصور المشوهة، التي لا تتفق وصفة النبوة، فيقول في البيت السادس والعشرين:

26 ويسمع للنبي إذا تعرى ... وأبدى عورتيه من المجون

وهو بهذا يشير إلى ما جاء في التوراة في سفر "صموئيل الأول" عن "أشاول": "فذهب إلى هناك إلى نايوت في الرامة، فكانت عليه أيضاً روح الله، فكان يذهب ويتنبأ حتى جاء إلى نايوت في الرامة. فخلع هو أيضاً ثيابه وتنبأ هو أيضاً أمام صموئيل وانطرح عرياناً ذلك النهار كله وكل الليل. لذلك يقولون أشاول أيضاً بين الأنبياء"[35] ويشير في البيت السابع والأربعين إلى ما جاء في التوراة عن داود عليه السلام، وطمعه في زوجة أحد قوّاده، "أوريّا الحثي" ويقول:

47 وقتل الزوج عدواناً وبغياً ... لينكحها رويع زير عين

ومما جاء في التوراة في إصحاح صموئيل الثاني عن هذه الحادثة:

"وكان في وقت المساء ان داود قام عن سريره، وتمشى على سطح بيت الملك فرأى من على السطح امرأة تستحم. وكانت جميلة المنظر جداً. فأرسل داود رسلاً وأخذها فدخلت إليه فاضطجع معها هي مطهرة من طمثها. ثم رجعت إلى بيتها. وحبلت المرأة فأرسلت وأخبرت داود وقالت اني حبلى. فأرسل داود إلى يوآب يقول أرسل إلى أوريا الحثي. فأرسل يوآب أوريا إلى داود فأتى أوريا إليه فسأل عن سلامة الشعب وراءه حصة من عند الملك. ونام أوريا على باب بيت الملك مع جميع عبيد سيده ولم ينزل إلى بيته. فأخبروا داود قائلين، لم ينزل أوريا إلى بيته. فقال داود لأوريا أما جئت من السفر. فلماذا لم تنزل إلى بيتك. فقال أوريا لداود أن التابوت وإسرائيل ويهوذا ساكنون في الخيام وسيدي يوآب وعبيد سيدي نازلون على وجه الصحراء وأنا آتي لآكل وأشرب وأضطجع مع امرأتي. وحياتك وحياة نفسك لا أفعل هذا الأمر. فقال داود لأوريا أقم هنا اليوم أيضاً وغداً أطلقك. فأقام أوريا في أورشليم ذلك اليوم وغده. ودعاه داود فأكل أمامه وشرب وأسكره. وخرج عند المساء ليضطجع في مضجعه مع عبيد سيده وإلى بيته لم ينزل. وفي الصباح كتب داود مكتوباً إلى يوآب وأرسله بيد أوريا. وكتب في المكتوب يقول. اجعلوا أوريا في وجه الحرب الشديدة وارجعوا من ورائه فيضرب ويموت. وكان في محاصرة يوآب المدينة أنه جعل أوريا في الموضع الذي علم أن رجال البأس فيه. فخرج رجال المدينة وحاربوا يوآب فسقط يوآب بعض الشعب من عبيد داود

ومات أوريا الحثي أيضاً. فأرسل يوآب وأخبر داود بجميع أمور الحرب... فلما سمعت امرأة أوريا أنه قد مات أوريا رجلها ندبت بعلها ولما مضت المناحة أرسل داود وبضمها إلى بيته وصارت له امرأة وولدت له أبناً. وأما الأمر الذي فعله داود فقبح في عيني الرب"[36].

وفي البيت الخامس والسبعين:

75 وهل أمسى نبيّهم ضجيعاً لفاجرة عوان ذات عون

وأبيات أخرى عديدة، لا تخرج عن هذا الذي ذكرناه إلا في فحش ألفاظها. وفي هذا تشويه لصورة الأنبياء، رضوان الله عليهم، وتحويل هذه الصورة من صورة تكتمل فيها المثل والأخلاق إلى صورة نقيضة تماماً، تحكمها شهوة النفس ولذة الدنيا.

منهج السلوك تجاه الأعداء:

إذا كان ابن حزم في رسالته التي أشرنا إليها قد تناول التناقض في بعض تعاليم التوراة، مثل وجوب معاقبة الأبناء بذنوب آبائهم في بعض الأسفار، ووجوب عدم أخذ الابن بذنب أبيه في أسفار أخرى[37]، فإن الشدياق قد وجه اهتمامه إضافة إلى ذلك، إلى التعاليم التوراتية الخاصة بمنهج السلوك تجاه الأعداء، مستمداً من قصص التوراة معيناً عزيزاً يمده بالحوادث التي تمثل فيها هذا السلوك تجاه أعداء بني إسرائيل. وهو سلوك تنتفي فيه المثل والمبادئ، واحترام العهود، لتحل محلها الغايات التي لا تقيم وزناً للوسائل. فالخصوم تقلع عيونهم، وتقطع شرايينهم، وتنشر أجسادهم بالمنشار، والمنازل يتم تدميرها، وعيون الماء تطمر بالتراب والحجارة، حتى لا ينتفع بمائها، والنساء الحوامل يقتلن مع أطفالهن وما في بطونهن. ويقول في البيت الرابع والأربعين:

24 ونشر الخصم بالمنشار أو سمل عينيه وتقطيع الوتين

والشدياق في هذا البيت يشير، كما هو واضح، إلى ما ذكرته التوراة عن صنيع داود بمدن العمونيين، حيث جاء فيها:

"فجمع داود كل الشعب وذهب إلى ربه وحاربها وأخذها، وأخذ تاج ملكهم عن رأسه... وأخرج غنيمة المدينة كثيرة جداً. وأخرج الشعب الذي فيها ووضعهم تحت مناشير ونوارج حديد وفؤوس حديد، وأمَرّهُم في أتون الآجر وهكذا صنع لجميع مدن بني عمون"(38).

وفي بيت آخر يشير –على الأرجح– إلى مانقله "اليشع بن ثافاط" من أمر الرب لملوك اليهود الثلاثة الذين جاءوه يسألوه في أمور تتعلق بحربهم مع الموأبيين، وكان مما قاله أليشع لهم: "... قال الرب اجعلوا هذا الوادي جباباً جبابا، لأنه هكذا قال الرب لا ترون ريحاً ولا ترون مطراً وهذا الوادي يمتلئ، ماء فتشربون أنتم وماشيتكم وبهائمكم. وذلك يسير في عيني الرب فيدفع إلى أيديكم. فتضربون كل مدينة محصنة وكل مدينة مختارة، وتقطعون كل شجرة طيبة، وتطمّون جميع عيون الماء، وتفسدون كل حقله جيدة بالحجارة"[39]، وفي ذلك يقول:

46 وتدمير المنازل والمغاني وتغوير المناهل والعيون

كما لا ينسى الشدياق أن يشير في هذا المجال إلى قصة قتل داود مائتين من ذكور الفلسطينيين محققاً بذلك الشرط الذي اشترطه عليه شاؤل ليزوجه ابنته، فيقول:

108 فكم قتّلت من قوم بـراء وكم هتّكت من عرض مصون

109وكم من غلفة أمهرتَ حتى حصلتَ على حِرِ بك مستهين

وقد جاء في التوراة عن هذه الحادثة:

"فقال شاؤل هكذا تقولون لداود. ليست مسرّة الملك بالمهر بل بمئة غلفة من الفلسطينيين للانتقام من أعداء الملك. وكان شاؤل يتفكر ان يوقع داود بيد الفلسطينيين فأخبر عبيده داود بهذا الكلام فحسن الكلام في عيني داود أن يصاهر الملك. ولم تكمل الأيام حتى قام داود وذهب هو ورجاله وقتل من الفلسطينيين مئتي رجل وأتى داود بغلفهم فأكملوها للملك لمصاهرة الملك. فأعطاه شاؤل ميكال ابنته امرأة"[40].

وإلى جانب هذه الموضوعات البارزة التي خصصناها بالذكر، فقد وردت في القصيدة محاور أخرى خصها الشاعر بسهام نقده وسخريته... ومن هذه المحاور صورة أحبار اليهود التي جاءت مغرقة في السّفه والبعد عن الطهر، واستغلال الكهانة لتحقيق المآرب وخداع العامة. كما تطرق الشدياق إلى لغة التوراة واصفاً أياها بالركاكة والتعقيد والخلط كونها بدّلت وحرّفت من قبل من قاموا بكتابتها. وأخيراً يتطرق الشدياق إلى حكم اليهود في العودة إلى فلسطين لامتلاكها ولإقامة دولة يهودية فيها، فيرى ذلك ضرباً من الخيال.

خاتمة:

لعل تناولنا لقصيدة الشدياق هذه، وعلى النحو الذي جاء عليه في هذه الدراسة القصيرة، يبين أن غرضنا كان التعريف بالقصيدة، وليس مناقشة النواحي الفكرية والفنية فيها. فقضية إسلام الشدياق، مثلاً، أخذت، كما يقول عماد الصلح، من اهتمام الدارسين حيزاً عاطفياً كبيراً. فمن الدارسين، مثل الأب لويس شيخو من اعتبر إسلام الشدياق ناتجاً عن طمع في المنصب أو المال، ومنهم من رأى فيه قراراً صدر عن اختيار حر يعكس قناعة تامة بالإسلام"[40] ولعل هذه القصيدة، تعزز الرأي الثاني وتقوّيه.

وكذلك الناحية الفنية فيها، فعلى الرغم من أن القصيدة، في مواضع كثيرة، جاءت خلوا من شعرية الشعر، وأقرب إلى النثر، إلا أنها في مواضع أخرى قد توفر لها قدر كبير من الفنية الشعرية، وتخص بالذكر تصوير الشاعر لأخبار اليهود وكهّانهم، وان جاء هذا التصوير من خلال ألفاظ موغلة في الفحش.

كما أن وضع القصيدة في إطار التاريخ الذي رجّحناه، يلفت انتباه الدارسين ممن يدرسون آثار الشدياق، فيقفون من تاريخ القصيدة الموقف الذي رجّحناه، وإذا ما خالفونا الرأي، فإن مخالفتهم ستأتي بعد مزيد من الاستفاضة في الدراسة، وإذا وافقونا الرأي نكون قد أزلنا التباساً وقع فيه دارسون سابقون، وربما يقع فيه دارسون لاحقون.

الهوامش

1. عماد الصلح: أحمد فارس الشدياق: آثاره وعصره، دار النهار للنشر، بيروت، 1980 ص63.
2. ابـــن قتيبـــة: الشـــعر والشـــعراء، تحقيـــق مفيـــد قميحـــة، دار الكتـــب العلميـــة، بيروت، 1981، ص59.
3. عماد الصلح: أحمد فارس الشدياق...، ص197.
4. المرجع نفسه.
5. نذكر من هذه المؤلفات:

- جرجي زيدان: تراجم مشاهير الشرق، القاهرة، 1922.

:تاريخ آداب اللغة العربية، القاهرة، 1957.

- محمد يوسف نجم: أحمد فارس الشدياق، بيروت 1948.
- أنطون شبلي: الشدياق واليازجي، بيروت، 1948.
- مارون عبود: صقر لبنان، بيروت، 1950.
- محمد أحمد خلف الله: أحمد فارس الشدياق، القاهرة، 1955.
- محمد عبد الغني حسن: أحمد فارس الشدياق، القاهرة، د.ت.
- ميخائيل صوايا: أحمد فارس الشدياق، حياته وآثاره، بيروت، 1962.
- كمال اليازجي: رواد النهضة الأدبية في لبنان، بيروت، 1962.
- جبور عبد النور: الشدياق والطبقة العاملة في انجلترا، بيروت،1975.
- عماد الصلح: من وثائق الشدياق، بيروت، 1979.

:أحمد فارس الشدياق، آثاره وعصره، بيروت، 1980.

- Muhammad Bakr Ulwan: Ahmad Faris ash-Shidyāq and the West (unpublished Ph.D. dissertation., Indiana University, 1970).

6. عماد الصلح: أحمد فارس الشدياق...، ص262.
7. زود الدارس مكتبة جامعة اليرموك / اربد بصورة "مكروفيلم" للقصيدة. مصورة عن النسخة المحفوظة في جامعة "كمبردج".
8. A.J. Arberry: Fresh Light on Ahmad Garis al-shidyaq., Islanic Culture, Hyderbad – Deccan, Vol. XXVI. 1952, p. 156.
9. المقالة أعلاه.
10. M. Bake 'Ulwan: "Jews in Arabic Literature: 1830-19f14", Al-Arabiyya (Journal of the American Association of Teachers of Arabic), Vol. II, Nos. 1 and 2, 1978, pp.47-49.
11. محمد عبد الغني حسن، أحمد فارس الشدياق، ص3.
12. عماد الصلح: أحمد فارس الشدياق...، ص23.
13. المرجع نفسه.
14. عماد الصلح: أحمد فارس الشدياق...، ص262.
15. المرجع نفسه، ص188.
16. مارون عبود: صقر لبنان ص116.

17. عماد الصلح: أحمد فارس الشدياق...، ص77.
18. المرجع نفسه، ص262.
19. مارون عبود، صقر لبنان، ص116.
20. المرجع نفسه، ص115.
21. انظر: رسائل ابن حزم الأندلسي، تحقيق إحسان عباس، المؤسسة العربيـــة للدراســـات والنشـــر بيروت، 1981، جـــ3، ص7-69.
22. التكوين / الإصحاح الأول، 26-27.
23. التكوين / الإصحاح الثالث، 22-24.
24. رسائل ابن حزم، ص54-55.
وانظر سفر التكوين / الإصحاح والثلاثون؛ 22-29.
25. الملوك الثاني / الإصحاح الثالث: 14-16.
والقضاة / الإصحاح الخامس: 1-4.
26. صموئيل الثاني / الإصحاح الثاني والعشرون: 7-11.
27. الخروج/ الإصحاح الثاني والثلاثون: 11-15.
والقضاة / الإصحاح الثاني: 18-19.
وصموئيل الثاني / الإصحاح الرابع والعشرون: 16-17.
28. صموئيل الأول / الإصحاح الخامس عشر: 3-4.
يشوع / الإصحاح السادس: 20-22.
29. خروج / الإصحاح التاسع والعشرون: 16-19-22-26.
30. رسائل ابن حزم، ص57.
31. انظر المرجع نفسه، ص60-63.
32. صموئيل الأول / الإصحاح التاسع عشر: ص23-24.
33. صموئيل الثاني / الإصحاح الحادي عشر: 2-28.
34. رسائل ابن حزم، ص45.
35. صموئيل الثاني / الإصحاح الثاني عشر: 29-31.
36. الملوك الثاني / الإصحاح الثالث: 16-20.
37. صموئيل الأول / الإصحاح الثامن عشر: 25-28.
38. عماد الصلح: أحمد فارس الشدياق...، ص:89.